مِنْ أَمْجَادِ الْجَزَائِرِ

(1962 - 1830)

سِلْسِلَة تَارِيخِيَّة ثَقَافِيَّة تَصْدُرُ عَنْ وَزَارَة الْمُجَاهِدِينَ

الشَّهِيدَة

مَرْيَمُ سَعْدَانُ

1958 - 1932

منشورات المتحف الوطني للمجاهد

الشهيدة

مَرْيمُ سَعْدَانْ

1958 - 1932

تصدير

تصدر هذه السلسلة التاريخية المخصصة للشهداء الرموز الذين يزخر بهم تاريخ المقاومة والثورة التحريرية، لتنير أمام الأجيال ولاسيما الشباب معالم درب النضال والجهاد الذي شقه ملايين الشهداء الأبرار بدمائهم الزكية، وعبدوه بأجسادهم الطاهرة ليكون معبرا للجزائر ولشعبها إلى الحرية والاستقلال.

تعد هذه السلسلة مساهمة من وزارة المجاهدين في بناء الذاكرة الجماعية وإثرائها، تعزيزا للجهود التي ما فتئت الدولة الجزائرية تبذلها من أجل الحفاظ على الهوية الوطنية، ودعم تواصل الأجيال وتلاحمها.

أرجو أن يجد الشباب الجزائري في هذه السلسلة ما يروي عطشه لمعرفة تاريخ بلاده وتضحيات شعبه خلال المقاومة والثورة التحريرية التي تعتبر مرحلة هامة في تاريخه المجيد.

محمد الشريف عباس

وزير المجاهدين

حقوق التأليف والنشر محفوظة للمتحف الوطني للمجاهد 2010

ر . د . م . ك : 978-9961-884-70-6

الإيداع القانوني : 2010-4046

المتحف الوطني للمجاهد

BP 168 EL - MADANIA - ALGER
TÉL : 00.213.021.66. 92.08-65.45.06
FAX:00.213.021.66.91.54

ص .ب 168 – المدنية – الجزائر
الهاتف : 00.213.021 . 66. 92. 08 - 65 . 45. 06
الفاكس : 00.213.021 . 66 . 91 . 54

البريد الإلكتروني : Email: mnm@museenat-moudjahid.dz

عادَت مريمُ ذاتَ مساءٍ من المؤسّسة التي كانت تدرُسُ فيها بمدينةِ قسنطِينةَ، فوجدتْ أَبَاها مُنْكَبًّا على تَصْحيح أوْراقِ تلاميذِه بنفس المؤسّسةِ التي تدرسُ فيها.

أَلْقَت عليه التّحيّةَ فردَّ عَليها بِمِثْلها، دُونَ أَنْ يرفعَ رأسَه، لانْشِغَالِه بِتَصْحِيح الْوَرَقةِ الّتي كَانَتْ بَيْنَ يَديْه. أَرادتْ مرْيَمُ أَنْ تتحدّثَ مَعه حَوْل ما طلبتْهُ منها أُسْتاذَتُها، فَلَمَّا رَأَتْهُ مُنْهَمِكًا في تَصْحِيح الأوراقِ أجّلتْ ذلِكَ إلى وَقْت انتهائِهِ مِنْ عمليّةِ التّصْحيح؛ ولكنّها ظلّت تَتَرَدّدُ عليه، فعَلِمَ أنّها تِريدُ منه شيْئًا، فَتَوَقَّفَ عنِ التّصحيحِ، وَالْتَفتَ إليْها، وَقال: كأنّكِ تُريدينَ شيئًا مِنّي يا مريم.

مريم: كَلَّفتْني الأستاذةُ بإنجازِ بَحْثٍ عَن دَوْرِ الْمَرْأَةِ في ثَوْرَة التَّحْريرِ الْجَزائِريّة.

الأب: أَمْهِلِيني حَتَّى أُنْهيَ تَصْحيحَ مَا بَقِيَ لَدَيّ مِنْ أَوْرَاق.

ذَهبَتْ مريمُ لِمشاهدةِ التّلفزْيُونِ، وَلَكِنْ ظَلَّ بَالُهَا مَشْغولاً بإنجازِ البَحْثِ؛ لأنّها تَعوَّدَتْ عَلَى أنْ تُنجزَ مَا يَطلبُهُ منها الأساتِذَةُ بِأسْرَعِ وقتٍ مُمْكِنٍ، وبِعِنايةٍ واهْتِمَامٍ كَبِيرَيْن.

وأثْنَاءَ مُشَاهَدَةِ التّلفزْيُونِ تَسَاءَلَتْ عَمَّا قَامَتْ بِه المرأةُ لِفَائِدَةِ الثورة.

مَاذَا بِإمْكَانِ الْمُعَلّمَةِ أَنْ تَقُومَ بِهِ؟ والموظّفَةِ فِي الإدَارَةِ - مِثْلِ أُمّي -؟ وَالمُمرّضَةِ فِي الْمُسْتَشْفَى؟ وَالْمَرْأَةِ الرّيفيَّةِ التّي تَعْمَلُ في الْحُقُولِ والمزَارِعِ، وتَعْتنِي بِتَرْبِيَّةِ الْحَيَوَانَاتِ؟

أَنْهَى الأبُ عَمَلِيّةَ التّصْحِيح، وَطَلَبَ مِن زوجته إعدادَ فِنجانِ قهوةٍ، فلمّا قَدَّمَتْهُ لَه، ارتشفَ رشفةً أو رشفَتَيْن، ثُمَّ نَادى ابْنَتَهُ مريمَ، فأسْرَعَتْ إليْهِ وَمعَها الأوْراقُ والقَلَمُ.

فَلَمّا سَألَها عمّا تُريدُ، أَلْقَتْ عَلَيْه نَفْسَ الأَسْئِلةِ الّتي فكّرَتْ فِيهَا عِندما كَانَتْ أَمَامَ التّلِفزْيُون.

مَرْيَم: فِيمَ تَمَثَّلَ دَوْرُ الْمَرْأةِ أَثْنَاء الثَّوْرة التَّحْرِيرِيَة؟

الأب: كَانَ دَوْرُهَا كَبيرًا، لَقَدْ سَاهَمَتْ في مَجَالاَتٍ كَثيرَةٍ كَنَقْل الْمُؤَنِ وَالذَّخيرَةِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَر بِخَاصَّةٍ في الْمُدُنِ، وَرَصَدَتْ تَحَرُّكَاتِ الْعَدُوّ وَعَالَجَتْ الْمَرْضَى وَالْمَجْرُوحِين، وَهَرَّبَتِ لِذَلِكَ الأَدْوِيَة مِنَ الْمُسْتَشفيَاتِ، أَو اقْتَنَتْهَا مِنَ الصَّيْدَلِيَات؛ ومَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ الأَعْمَالِ الْجَلِيلَةِ التي لا تَكَادُ

تُحْصَى، والتي كَان على رَأْسِهَا صَبْرُها الْجَميلُ على مَنْ نَالَ الشَّهَادَة مِنْ ذَوِيهَا وَأَعَزِّ أَقَارِبهَا، لَكِن لِمَ سُؤَالُكِ عَنْ دَوْرِ الْمَرْأَةِ إبَّان الثّورة، هَلْ لَهُ عَلاَقَةٌ بِبَحْثِك؟

مريم: نَعَمْ يَا أبِي، لأَنَّنا سَنَحْتَفلُ هَذَا الأُسْبُوع بِعِيدِ المرأة وَقَدْ طَلَبَتْ مِنّى الأُسْتاذَةُ أَنْ أُنْجزَ بَحْثاً حَوْل دَوْرِ الْمَرْأَةِ في الثّوْرَةِ، لأَنَّهَا تَعْلَمُ أَنَّكَ أسْتَاذٌ في مَادّةِ التّارِيخِ، وَسَتُساعِدُنِي عَلَى إنْجازِهِ بِلاَ شَكّ.

الأب: قَبْلَ أَنْ تُولَدِي قُلتُ في نَفْسِي: إنْ رَزقني اللهُ بنتاً، سَأسمّيها مَريمَ؛ تصَورّي لماذَا نَوَيْتُ ذَلِك؟

مريم: مريمُ اسْمٌ جَميلٌ، ومعروفٌ في القديم والْحَدِيث، وَسُمّيَتْ بِهِ سُورَةٌ مِنْ سُورِ القرآنِ الكريم؛ ثُمَّ هُوَ اسْمُ أُمِّ نَبِيّنا عِيسَى عليه السّلامُ.

الأب: ما قُلْتِه صحيحٌ، وَلكنَّ الدَّافِعَ الّذي دَفعني إلى اختيارِ هَذا الاسمِ هُو شيءٌ آخر.

مريم: فَمَا هُو؟

الأب: قرأتُ قِصّتَيْنِ لِشَهيدتَيْنِ اسْتُشْهِدَتَا بِمدينةِ قَسنطِينَة، كلٌّ منهما اسمُها مريم؛ الأولَى هِيَ مريم بوعتّورة، والثّانيةُ هِيَ مريمُ سَعْدان. وَأُفَضّلُ أنْ يكونَ الحديثُ عَن الثّانية لأنّني مازِلتُ أَتذكّرُ أحداثَها.

عِندَما سِمعتْ مَريمُ ما قالَه أبوها، تهَلّلَ وجهُها، واستنَارَ مِن شِدّةِ الفَرحِ، ثُم قالتْ: حدّثني عَنْهَا مِنْ فَضْلِك.

الأب: كثيرٌ من المراجعِ التّاريخيّةِ تَحدّثت عَن سِيرتِها، وَعَن نَشَاطِها لِفائدةِ الثّوْرةِ، وبعضُها يُوجَدُ بمكتبتي الخَاصَّةِ، يُمكِنُكِ الرّجوعُ إلَيْهِ. وبما أَنّني

اليومَ قَد تَعِبْتُ مِنْ كَثْرةِ التّصْحِيح أَكْتَفِي بِأَنْ أدُلَّكِ على المراجِعِ لِتطّلعي علَى مَا وَرَدَ فِيهَا بنفسك، وَفي الغَدِ تُطْلِعِينَني عَمَّا تَوصّلْتِ إليه؛ لأُضيفَ لَكِ ما لَمْ تسْتَطيعي الْوُصولَ إليه مِنْ مَعْلومَاتٍ عَنْ هذه الشَّهِيدَة.

مريم: شكراً جزيلاً، يَا أبِي. وَقَبْلَ أَنْ تذهبَ إلى المكْتَبَة طبَعتْ عَلى جَبِينِه قُبْلةً حارّة.

تصَفّحَتْ مَريَمُ الكُتُبَ التّاريخِيَّةَ الّتي وَرَدَ فِيهاَ الحديثُ عَنِ الشّهيدةِ مَرْيمَ سَعْدان، وَدَوّنَتْ بعضَها فِي أوْرَاقِهاَ الخَاصَّة، ثُمَّ ذَهَبَتْ لِتنَام.

وفي الْمَوْعِدِ الثّاني مَع أبيها، طلبَ مِنهاَ أَنْ تُطلِعَهُ عَمَّا كتَبَتْه في أوراقها؛ وقبْلَ ذَلِكَ قالَتْ: أحيَانًا تتحدَّثُ المراجِعُ عَن فَضِيلَة سَعْدان، وَأحياناً تَتحَّدثُ عَن مَريمَ سَعْدان؛ فَمَا علاَقَتُهُما بِبَعْضِهِما ؟

ابتَسَمَ الأبُ، وقال: إنهما شقيقتَان، كِلْتَاهُما استُشْهِدَتَا أثْنَاءَ الثَّورةِ، بِمدينَةِ قَسنْطينة.

مريم: مَريمُ وُلِدتْ في 14 جويلية 1932 ببَلَدِيَّةِ وادي الْماءِ التّابعةِ حَالياً لِدائرةِ مَرْوانَة بِولايةِ بَاتْنة، وَفضيلةُ وُلِدتْ بَعْدَها بِستّ سنوات (1938) بمدينةِ قَصْرِ البُخارِي القريبةِ مِنْ مَدينةِ المدّية، والمسافَةُ بَين مَكَانَيْ مِيلادِهِما بَعيدَةٌ ، فَمَا سَبَبُ ذَلِكَ؟

الأب: أَبوُهما، ويُدْعى محمّد الصّالح، كَانَ معلّماً بالمدارسِ الحرّةِ التابعةِ لجمعيّةِ العلماءِ الْمُسْلمينَ الْجَزَائِريّين الّتي أُنْشِئتْ عام 1931، وتولَّى رِئاسَتَها عبْدُ الْحَميدِ بْنُ بَادِيسَ؛ وَبما أنّ مَدارسَ الجمعيةِ كانَتْ مُنْتشرةً عَبْرَ التُّرابِ الْوطني، فَقدْ أجْبَرَتْ ظُروفُ الْعَمَلِ أَبَاهُمَا عَلى الانْتِقَالِ مِن مَرْوانةَ إلى قَصْرِ البخاري.

مريم: فماذا أَكتُبُ عَنْ مكانِ نَشْأتِها؟

الأب: نَشأتْ بِكلٍّ مِنْ مَرْوَانَةَ وقصْرِ البُخارِي وَالحرّوشِ وقسنطينة.

مريم: هَل أثَّرَ ذَلِكَ عَلَى مَسَارِهَا الدِّراسِيّ؟

الأب: لاَ، فَقَد نَجَحَت هِي وَأُخْتُهَا فَضِيلة فِي دِرَاسَتِهِمَا. فأختُها فَضِيلَة احْتَلَّت المَرَاتِبَ الأُولَى فِي امتحانِ شَهادةِ البَكَالُورياَ، وَتفَوّقَتْ على الفَرنسيّاتِ وفِي بَلَدِهِنَّ.

مريم: هَل تقصدُ أنَّها تَحصّلتْ على البَكالوريا بِفرنسا؟

الأب: أَجَلْ.

مريم: وَلِماذاَ انْتَقَلَ أبُوها إلى فَرنْساَ، وَلَيْسَ فِيهَا مَدَارِسُ لِجمعيّةِ العُلَمَاءِ؟

الأب: لا، فَقَد تُوفّيَ أَبُوهَا أَثْناءَ الحربِ العالميّةِ الثَّانيةِ، عام 1940 بِقصرِ البُخاري، ولِذلِكَ انْتَقلَتْ

أُسرَتُه إلى الحرُّوشِ، حَيْث كان يَسكنُ أَخُو زوْجَتِهِ، لِأنها كَانَتْ غَرِيبَةً بقَصْرِ البُخارِي.

أَمَّا مَريَمُ فَقَد أَكْمَلَتْ مَرحلةَ التّعليم التّكميلي بمدينةِ قسنطينة. وَبعدَ حُصولها عَلى شَهَادةِ الأهليةِ، شَارَكَتْ في مُسابقةِ الدّخولِ إلى مَدرسةِ التَّكوين الْمِهْنِي الّتِي تَخَرجَّتْ مِنْها مُمرِّضة.

مريم: لِماذَا لَمْ تُواصِلْ دِراسَتَها في الثَّانوية؟

الأب: كَانَتْ تَرغَبُ في ذلك، وَلكنْ مَرّتْ أسرَتُها بِظروفٍ مادّيةٍ صَعْبةٍ، نَتيجَةَ غِيابِ مَنْ يُوفِّرُ لَهُمْ قوتَ يَوْمِهِمْ؛ لِذلك رَأَتْ من وَاجِبِها أَنْ تُضَحّيَ بِمُسْتَقْبلهَا الدّراسِيّ مِنْ أجْلِ تَوْفِيرِ لُقمةِ العَيْشِ الكريمةِ لأفرادِ أُسْرَتِها، وَتُمَكّنَ أُخْتَها الصُّغْرَى (فَضيلة) مِنْ مُواصَلةِ الدّراسةِ.

مريم: إِذَنْ ضَحَّتْ مَرّتيْن؛ في المرّةِ الأُولى

ضحّت لِصالح أُسْرَتِها، وفي الْمَرَّةِ الثَّانيةِ ضحّت لِصَالِحَ وَطنِها.

الأب: أَحْسَنْتِ في هَذَا الاسْتِنْتاجِ.

مريم: أَيْنَ عَمِلَتْ مُمرّضَة؟

الأب: عَمِلتْ بِمُستشفَى مدينةِ قَسنطينة.

مريم: مَتَى التَحَقَتْ مريم بِالثّورة؟

الأب: أغْلَبُ المثَقّفِين الْتَحَقوا بِالثورةِ بَعدْ الإضْرابِ الْعامّ الّذي شَنَّه الطّلَبَةُ في 19 ماي 1956، ومِنْ بَيْنِهِمْ الشقيقتانِ مَريمُ وفضيلَةُ.

مريم: كَيْفَ شاركتْ في الثورة؟

الأب: في الْبِدايَةِ شارَكَتْ بالتَّكفُّل بِتَمْرِيضِ أُسَرِ الشّهداءِ وَذَوِيهِم، ثُمّ شاركتْ في تَهْرِيبِ الأدْوِيَةِ المفْقُــودَةِ في الصّيْدَلــيّاتِ، والتّي كَانَتْ تُسْتَعْمَلُ

عــادةً في إجراءِ الْعَمَليّاتِ الْجِراحِيّــةِ لِعلاجِ المجاهِدِينَ، ثُمّ تَطّورَ نشَاطُها لِيشمَلَ نَقْلَ الرّسائلِ وَالأسْلِحَة الخَفيفةِ، وَتأمِينِ الْمَسالِكِ التّي كَانَ يَتنَقّلُ عَبْرَهاَ الفِدائيُّون ....

مريم: كَيْفَ اسْتَطاَعَتْ مَريمُ سَعْدان أَنْ تُوفِّقَ بَيْنَ الْعَملِ بالمستَشفىَ وبين النَّشاطِ الفِدائي؟

الأب: كَانَ العمَلُ في الْمُسْتشفىَ يَتمُّ بالتّناوُب بَين المُمَرّضِينَ والْمُمَرّضَاتِ؛ «يَومٌ يكونُ فِيه العَمَلُ، وَاليومُ المُوالِى لَهُ يكونُ راحةً لِمَنْ عَمِلَ في الْيَوْمِ الّذي سَبَقَهُ».

مريم: كَيْفَ كانَتْ تَسْتَغِلُّ أيّامَ الرَاحة؟

الأب: كَانَتْ تَستَغِلُّ أيّامَ الرّاحةِ في زِيَارَةِ أُسَرِ الشّهَداءِ، أَوْ تَقديم الإسْعافَاتِ الْأَوَّلِيّةِ للمجَاهِدين أَوِ الْفِدائِيّينَ بِالإضَافَةِ إلى حُضورِ اجْتِماعَاتٍ سِرّيةٍ،

كَانَ يُنظِّمُها مُناضِلُو جَبْهَةِ التّحْرِيرِ المشْرِفُونَ على النَّشاطِ الفِدائِيّ بِمدينَةِ قَسَنْطِينَة.

مريم: هَلْ حَامَتْ حَوْلَها شُكُوكُ العَدُوّ؟

الأب: نعـم، كَانَتْ قُوّاتُ الْبولـيس ترصْـدُ تحرُّكاتِها؛ وَلَمّا اشْتَبَهَتْ في أَمْرِها أَلْقَتْ عَلَيْها الْقَبْـضَ، وأثْنَاءَ الاسْتِنْطَاقِ تَعرّضَتْ إلى عَذَابٍ شَدِيدٍ نَفْسِيّ وجَسَدِيّ؛ مِثْل تَعْرِيّةِ الجَسَـدِ وَوَضْعِ الْمَعَادِنِ النَّاقِلةِ لِلْكَهْرَبَاءِ عَلَى مَنَاطِقَ حَسَّاسةٍ في جَسَدِها.

مريم: هَل أَبَاحَتْ لِلْعَدُوّ بِمَا طَلَبَهُ مِنْها لِتَتَخَلَّصَ مِن هَذَا العَذَابِ الّذي لاَ يُطاقُ؟

الأب: لا، لأنَّ النَّشاطَ الفِدائِيَّ يتطَلَّبُ الصّبْرَ، قُوّةَ التَّحَمُّلِ وهذهِ الصّفةُ قَدْ توَفّرَتْ في مريمَ سَعْدان.

مريم: هَلْ أُخْلِيَ سَبِيلُها بَعد التعْذِيبِ أَمْ بَقِيَتْ في الحَبْس؟

الأب: أُخْلِيَ سَبِيلُها، ولَكِنّهَا عَادتْ مَرّةً أُخْرىَ إلى نَشَاطِهَا المُسانِدِ للثّوْرَةِ؛ فَلَمَّا تمكّنّتْ قُوّاتُ الْعَدُوّ مِنَ العُثُورِ على دَلِيلٍ مادّيّ يُثْبِتُ انْتِماءَها إلى الْمَجْموعَةِ الْفِدائِيةِ أَلْقَتِ القَبْضَ عَلَيْهَا مِنْ جَدِيد.

مريم: مَا هو هَذا الدّليل؟

الأب: أَثْنَاءَ إِلقاءِ القَبْضِ عَلَى مُناضِلٍ كان مُكلَّفاً بِرَبْطِ الاتّصالِ بَيْنَ تَنظِيمِ الثَّورَةِ بمَدينةِ قَسَنْطِينَةَ وبَينَ مَا جَاوَرَها مِن القُرى وَالمُدُن الصّغيرَةِ، عَثَرَ العدُّو عَلَى وَثَائقَ سرّيّةٍ كَانَتْ بِحَوْزَتِه، مِن بَيْنِها رِسالةٌ مُوقَّعةٌ بخطّ مَريمَ سَعدان. وخِلالَ استِنْطاقِها ثبَتَتْ عَلَى أَقْوالِهَا، وَلَمَ تَبُحْ لِلعدُوّ بأيّ سرٍّ مِنْ أَسْرارِ الثّورة.

مريم: مَا هَذِهِ الشَّجاعَةُ؟! ومَا هذا الصَّبْر؟!

الأب: إنّه الإيمانُ الْقَــوىُّ بِالْقَضِيّــةِ الوَطَنيّــةِ العَادِلَــةِ، أَتَمَنَّى مِــنْكِ أَنْ تَقْتَــديَ بِها.

مريم: أَرجــو أن يوفّقني اللّهُ لأَكــونَ عِند حُسْنِ ظَنّك.

ثُمَّ قَالَتْ: لاَ شَكَّ أَنَّهَا قُدِّمَت للمُحاكَمَةِ بَعْدَ العُثُورِ عَلى الدّلِيلِ الْمَاديّ الّذي يُدِينُهَا بِه.

الأب: لم تُقَدَّمْ لِلْمُحاكَمَةِ، وَإِنَّمَا تَعَرَّضَتْ لأَبْشعِ صُورِ التّعْذِيبَ، ثُمَّ قَامَ الجلادُون بإعْدامِهَا يَوم 22 جوان 1958، بِمَرْكَزِ التَّعْذِيبِ الْكَائِنِ بـ (حَامّة بُوزَيّان).

مريم: كَيْفَ كَانَ رَدُّ فِعْلِ أختِها فَضِيلة التي كَانَتْ تَدرُسُ بِفرنسا، عِنْدَمَا عَلِمتْ باستشهاد أخْتِها؟

الأب: في تلكَ السَّنــةِ حَصَلَتْ فضيلة على شهادَةِ البكالورياَ، وَكَانَتْ تَستَعِدُّ لِلتّسْجيلِ فِي الجامعةِ الفَرنسيّةِ، ولكنّها عِنْدَمَا سَمِعَتْ بِاستشهادِ أُخْتِها رجَعَتْ إِلىَ وَطَنِهَا لِتُواصِلَ رِسَالَتَها فِي الجهادِ؛ فانضمّتْ إلى الثّوْرَةِ بمدينةِ قسنطينة، وشارَكتْ فِي عِدّةِ عَمَليّاتٍ فدائيّةٍ بحمَاسٍ أكبَرَ حتى لَحِقت بِأُخْتِها.

توقّف الأبُ عنِ الحديث مدّةً يسيرَة، ثم قال: وَلوْ رَزَقَنِي اللَّهُ بِنْتًا أُخْرَى لأَطْلَقْتُ عَلَيْها اسْمَ فضِيلَة، لتَكُون شقيقةً لَك.

قَبَّلتْ مَريمُ أَبَاهَا، وَطَوَتْ أَوْرَاقَهَا عَلى أَمَلِ أَنْ تَكْتُبَ مَا سَمِعَتْه فِي الْيَوْمَين القادِميْن اللَّذَيْن يَسْبِقانِ مَوْعِدَ الاحْتِفَالِ بِاليوم العَالَمي للمَرأة.